

نحو تجديد الخطاب القيميّ

أ.د/ طه جابر العلواني

بين يدي الموضوع:

آثرنا استعمال "الخطاب القيميّ" على الخطاب الدينيّ؛ لأنّه الأقرب للتعبير عن حاجاتنا وخطواتنا نحو التجديد.

ولأنّه إذا جعلنا الهدف "تجديد الخطاب القيميّ" فإنّ ذلك يوجد مكاناً لمتقفي الأُمَّة - كلها- في هذه العمليّة الجادة.

لم يطالب المسلمون بتجديد اليوم بتجديد خطابهم الدينيّ

حُمِّل الإسلام والمسلمون في الآونة الأخيرة مسؤوليّة إشاعة الإرهاب، وقد أنفق المسلمون ومفكروهم سحابة القرن العشرين الماضي بأفكار "المقاربة والمقارنة"، وإبراز التوافق بين المفاهيم الغربيّة والمفاهيم الإسلاميّة دون جدوى.

التجديد حقيقةً ومفهوماً:

هو مفهوم قرآنيّ ورد ومشتقاته في بعض الآيات الكريمة ليدل على كل ما أحدث إنشاؤه، جاء في قوله (تعالى): ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق:15)، في إشارة إلى النشأة الثانية؛ لأنّها بمثابة الإنشاء المستحدث وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ﴾ (فاطر:27) يريد الطرق التي يسلكها الناس في الجبال فيصبح المسلك كأنّه أبيض من كثرة المشي ويطلق على الفيض الإلهيّ «جدّ» ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ (الجن:3) أي فيضه ونعمه. وفي دعاء رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ينفع ذا الجد منك الجد».

وتنطوي على معنيين:

المعنى الأول: الجدود آباء الآباء الذين ينتسب الناس إليهم وقد يفتخرون بذلك.

والمعنى الثاني: الجد بمعنى السعي الجاد في الطاعة الذي لا ينفع وحده ما لم تخلص النية فيه فيقبله الله (جل شأنه).

"التجديد" على هذا أن تزال آثار القَدَم عن الشيء حتى يبدو كأنه جديد أنشئ للمرة الأولى أو أنشئ نشأة أولى.

وبلى الأفكار وقدمها يحدثان نتيجة أمرين:

الأول: إنَّ الأفكار والمعارف تولد ومعها أزمتها بشكل بذور كامنة فيها.

الثاني: و"سنة التقادم وطول الأمد" كثيراً ما ينتج عنها قسوة في القلوب تجعل تلك الأفكار في حاجة ماسة إلى التجديد وإعادة النظر؛ لئلا يصبح إثمها أكبر من نفعها.

والفكر الدينيّ مثل أيّ فكر إنسانيّ؛ هو فكر إنسانيّ في قضايا دينيّة، إذا كان الدين لا يبلى ولا يحمل أعراضاً ذاتيّة لصدوره عن الأزليّ (جل شأنه)، فالفكر الإنسانيّ وإن دار حول الوحي بمحاولات الفهم والتفسير والتأويل فإنّه يستحيل أن يتمتع بصفات الوحي ذاتها وخصائصها وقدسيتها.

الزمن والتقادم والبلى:

تعريف الزمن بأنّه: «مقدار حركة الفلك الأطلس» أمّا المتكلمون فقد عرفوه بـ:

«مقدار معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم».

وفي القرآن الكريم كعاداته تنبيهات كثيرة بفوائد الوعي بالزمن وتنظيم الحياة والواقع

بمقتضاه.

ويعد سيدنا إبراهيم من أوائل الأنبياء والرسل الذين عنوا بربط التوحيد وقضايا الدين الكبرى بوسائل الزمن وأدواته، وعمل على كسر فكرة الخلود الإنساني في هذه الحياة الدنيا. الحاجة إلى التمييز بين الخلود والتجدد والتجديد.

التجديد لا يعني التحكم في الزمن.

نحن نتحفظ على القول السائد: «إنَّ التاريخ يعيد نفسه» فهو لا يعيد نفسه في الحقيقة إنما هو سائر إلى الأمام باتجاه ملاقاته الله (جل شأنه): ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق:6)، وباتجاه الأجل المسمّى عنده (سبحانه وتعالى).

والقرآن المجيد يعتبر تجديدًا لخطاب النبوات كلها.

سائر المؤشرات القرآنيّة نبهت إلى أنّ "التجديد مثل الاجتهاد"، وهو حالة أمة وليست حالة فردية.

فما الذي جعل المسلمين يحاولون التجديد من موقعه الشامل هذا إلى حالة فردية فقهية؟ ولماذا تم الربط بين التجديد والدين وصدور التجديد كما صدور الاجتهاد من قبل ليحصر في الاتجاه الفقهي؟!.

الأنبياء والتجديد:

فسائر تصرفات الأنبياء كانت تجديدًا، مثال: موسى وأخوه هارون، مع فرعون، وموسى والخضر، وداود وسليمان.

فالدين نفسه عقيدة وشريعة وقيم ونظم ليس بحاجة إلى التجديد، ولكن ما يحتاج التجديد هو "فقه التدين" لدى الناس.

الأمة وعاء التجديد ومنطلقها:

التجديد لا يكون في الفقه وحده، ولا في نظام منفرد من نظم الحياة، بل هو تجديد شامل عام لا بد أن يمس الأمة كلها، وتشارك في أحداثه جميع فصائلها وأهل الخبرة والفكر وصناع القرار فيها.

ثانياً الخطاب

مفهوم الخطاب:

يطلق الخطابُ في اللغة العربية على: "مراجعة الكلام"¹. ويأتي الخطاب بمعنى الرسالة، والخطاب بمعنى الكلام مطلقاً².

والخطاب القرآني قد يختلف عن سائر أنواع الخطابات التي جاءت بها الكتب السابقة من نواحي عدة:

أولاً: إنَّ الخطاب القرآني خطابٌ كونيٌّ وعالميٌّ فيه شبهةٌ من كل وجه بخطاب العهد الوارد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 172) وكذلك خطاب الاستخلاف والائتمان والابتلاء.

الفرق الثاني: ملاحظة خصائص اللسان القرآني.

ثالثاً: هو خطابٌ يتصلُّ بحقائق ثلاثة: الغيب، بكل تفاصيله، مطلقاً أو نسبيّاً، والإنسان بكيونته التي ذكرنا، والطبيعة بكيونتها كذلك، ليكشف لنا عن تفاعل هذه الأبعاد الثلاثة.

1 ابن منظور، لسان العرب.

2 المعجم الوسيط.

رابعاً: أنّ هذا الكتاب الكويّ في تعرضه للجوانب الدستوريّة والقانونيّة يخالف كل ما عرفت
البشريّة من دساتير وقوانين.

نقد الخطاب الإسلامي المعاصر

خطاب ديني أم خطاب إسلامي؟

لم يضع خطوطاً فاصلة بين ما يسمى بخطاب ديني وخطاب دنيوي أو مدني؛ لأنّ الإسلام
يخاطب الإنسان في كينونته الكاملة.

نفضل خطاب إسلامي لا ديني حتى لا يشمل الأديان كلها. كما أنّ مفهوم "الديني" كان
له ارتباط بالعالم اللامعقول أو الغيبي.

مراحل نشأة وتطور الخطاب الإسلامي

المرحلة الأولى: الخطاب النبوي.

المرحلة الثانية: بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) مرحلة "الخلافة على منهاج
النبوة".

المرحلة الثالثة: مرحلة انقراض فيها جيل التلقي وعصر كبار الصحابة، والخطاب ما زال
عنصره الأساس هو القرآن الكريم.

المرحلة الرابعة: أهل السيف وأهل القلم:

أهل الرأي وأهل الحديث:

قيام دولة التشيع الصفوي:

المرحلة الخامسة: المرحلة التي ساد فيها التقليد، واتباع الآباء والمتقدمين، والوقوف

عند ما بلغوه وتكراره والنسج على منواله في سائر القضايا.

مميزات قيام الدولة العثمانية، وأسباب سقوطها.

كان الخطاب الإسلامي في الدولة العثمانية خطاباً عسكرياً يستهدف إبراز قوة الدولة وقدرتها على مواجهة خصومها اجتمعوا أم تفرقوا، وفي الوقت نفسه كان في داخله خطاباً موحدًا يؤمن بوحدة الأمة الإسلامية. كما قامت بتجميع ما بقي وضمه إليها، فنجحت في إقامة دولة مهابة وبناء جيوش قادرة على القتال وفرض الهيبة، ولو بدون المشروع التحريري الذي حمله القرآن إلى الناس أو به. ولكن بفهم آخر غير الفهم الذي كان سائدًا في جيل التلقي.

فتوى جواز العمل بغير العربية

فتوى العلماء بعدم وجوب استعمال العربية ساعد فيما بعد على إضفاء شيء من المسحة القومية التركية على ذلك الخطاب، وأبرز الفراغ الذي نجم عن عدم تبني مشروع حضاري إسلامي كامل فكريًا وثقافيًا ومعرفيًا من قبل تلك الدولة.

ثم تأتي مرحلة أخرى يتشكل فيها خطاب جديد في عالمنا العربي خاصة يقوم على أركان الاستقلال وتدعيم الاستقلال والتحرر من الاستعمار والالتحاق بركب الدول المتقدمة والتخلص من حالة التخلف، وذلك بتبني المشروع الفكري والثقافي والمعرفي للغازي الأوروبي وحلفائه.

الخطاب بعد قيام الدولة العبرية:

تشكل خطابات جزئية كثيرة بعد قيام إسرائيل على الأرض الفلسطينية. ولكنها لم تستطع أن تجيب عن سؤال النهضة: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ كما لم تستطع أن تجيب عن سؤال "الإصلاح والتجديد والإحياء والاجتهاد".

في خلفية إدراك مشكلات الخطاب:

اتهام الخطاب الإسلامي من الحضارة المسيهودية بأنه خطاب يخدم الإرهاب.

ومفهوم "الإرهاب" مفهوم غير موضوعي، وليست له دلالة محددة ومتفق عليها.

ولكي نستجلي حقيقة الأمر وطبيعة «أزمة الخطاب الإسلامي» فإننا بحاجة إلى استحضار عدة ملاحظات، تتعلق بالمصطلح، وثنائية أهل الرأي وأهل الحديث، وثنائية الأصالة والمعاصرة والحرية وأثرها في بناء الخطاب.

حادثة المصطلح:

«الخطاب الديني» وإن استبدلناه بـ «الإسلامي» مصطلح حديث عهده في تاريخ «الفكر المعاصر» وينطوي بطبيعته على نوع من التمييز والفصل بينه وبين خطاب آخر.

ثنائية الرأي والحديث، والسيف والقلم:

الأمة الحرة وصياغة الخطاب

ثنائية الأصالة والمعاصرة، وكلا التيارين كانا يحاولان الإجابة عن سؤال واحد؛ هُوَ «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟».

الخطاب الإسلامي وثقافة الموت

ظهور الحركات الإسلامية والعمليات الاستشهادية.

إطلاق النداءات المتواصلة بضرورة "تجديد الخطاب الديني" وإعادة النظر فيه للتخلص من دعوات العنف والموت.

خصائص الخطاب الإسلامي المعاصر

إنّ الخطاب الإسلاميّ إذا أردنا ذكر خصائصه على سبيل الإجمال نجده يشتمل على الخصائص التالية:

1. إنّ خطاب يركّز على الخلاص الأخرويّ الفرديّ، وحين يتجاوز الفرد فإنّه لا يعدو أن يكون خطاباً للجماعة أي عدد من الأفراد، يجتمعون في جامع يمكن أن يصلّوا - معاً - الجمعة والجماعة بالمفهوم الشعائريّ لا بمفهوم "الجماعة المساوي للأمة" والخطاب لم يوضع ولم يعدّ بحيث يجعل منهم "جماعة وأمة" فهو خطاب فرديّ يدور حول خلاص فرديّ آخرويّ.

3. إنّ خطاب ينطلق من فكرة أداء حامله ما عليه من واجب الدعوة في نظر صاحبه. فينطلق من مبدأ أو فكرة: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: 164) أكثر من كونه منطلقاً من منطلقات محدّدة باتجاه واقع يدرك حسناته فيعمل على إنمائها وتعزيزها، ويدرك سيئاته ويعمل على تغييرها، فهو خطاب يهدف إلى البناء.

4. هو خطاب يقوم على تجاوز الحاضر ومغادرة الواقع الحاليّ إلى الواقع التاريخيّ، تعبيراً عن عجز عن مواجهة هذا الواقع؛ وأحياناً عن رغبة في الراحة والسكون والدعة والتقليد.

5. خطاب يقدم «الاستعلاء الإيمانيّ» باعتباره دواءً لكل داء، فما من علّة سياسيّة أو أزمة اقتصاديّة أو مشكلة اجتماعيّة أو قضيّة تربويّة إلا وتواجه بهذا الاستعلاء باعتباره دواءً مريحاً ناجحاً يصلح لكل داء، وحلاً لكل مشكلة، إذ يجري تحويلها إلى مشكلة لغويّة وفلسفيّة تأمليّة سحاليّة.

6. هو خطاب يفتقر إلى مراعاة مقتضى الحال بكل ما يحمله مفهوم «الحال» من معان.

7. هُوَ خطاب يفتقر إلى «فقه الكلمة» وإدراك أبعاد المسؤولية عنها.
8. هُوَ خطاب يفتقر إلى توحى الهدف بعد تحديده بدقة.
9. هُوَ خطاب لا يمتلك أدوات النفاذ إلى الواقع والاشتباك معه لإحداث نقلة فيه على المستوى النوعي أو سواه.
10. هُوَ خطاب لحظة ومناسبة؛ لذلك فإنه -غالبًا- مَا يَتَّسَم بالعفوية، ورد الفعل.
11. هُوَ خطاب تغلب عليه الجزئية، فلا ينظر للأمة بعمومها، ولا إلى الإسلام بشموليته.
12. هُوَ خطاب لا يخضع لمقاييس وضوابط صياغة الخطاب ومحاکمته إلى معايير معروفة بحيث يتقرر -وفقًا لها- نجاحه من فشله.
13. هُوَ خطاب تعوزه الأبعاد المعرفية، والمنهجية، وما تتوقف عليه من أبعاد عقلية وخبرات وتجارب علمية، ووسائل إقناع.
14. هُوَ خطاب يتسم بالعاطفية، وقد يعتبر قمة نجاحه إثارة الخيال وكسب الاستحسان!
15. هو خطاب ينظر إلى الفتوى الفقهية على أنها حل سحري للمشكلات.

الخطاب الديني متهم بعدة اتهامات منها:

- 1- أنه خطاب يثير الفتن الطائفية بما يستعمله من مصطلحات ومفاهيم لا تخلو من تحريض على الآخر وتحقير لشأنه ولما لديه.

2- الخطاب الديني متهم بأنه خطاب للآخرة لا للحياة الدنيا وأنه يجعل المخاطب به يعيش بين حالتين: حالة الماضي (التراث) وحالة المستقبل البعيد (الدار الآخرة) ولا يهتم بمشاكل الحاضر ولا العصر بل يشغل الناس عن واقعهم أو حاضرهم بماضيهم البعيد أو مستقبلهم البعيد.

3- الخطاب الديني متهم بأنه خطاب ذكوري يهمل المرأة ولا يبدي بها اهتمامًا إلا باعتبارها تابعة للرجل دائرة في فلكه، بل لقد نص بعض الفقهاء والمفسرين على إدراج المرأة بين السفهاء كما في تفسير الإمام الرازي لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: 5).

4- الخطاب الديني متهم بأنه خطاب لفظي بياني خطابي لا يعنى كثيرًا بالفاعلية والتأثير وتغيير الواقع.

5- الخطاب الديني متهم بأنه مشحون بعوامل العنف والكرهية والتمييز والاستهانة بحقوق الإنسان.

6- الخطاب الديني متهم بأنه خطاب يؤدي إلى نوع من الغرور والاستعلاء وتجاوز الآخرين.

7- الخطاب الديني متهم بأنه يهيب الأذهان لقبول الخرافة بقصد أو بدون قصد والترجيع لها وللسحر والمنامات وما إلى ذلك من قضايا تجاوزها القرآن الكريم.

8- الخطاب الديني متهم بأنه يؤصل للتواكل والسلبيّة.

9- الخطاب الديني متهم بأنه يؤصل لتجاهل العقلانيّة ودور العقل في حياة الناس.

10- الخطاب الديني متهم بأنه يؤصل للاستبداد ويساعد عليه بما بني عليه من توجه نحو النزعات الفرديّة، فالكتاب الفقهي بالذات كتاب أعد للأفراد وأبوابه كلها مركزة على الأفراد.

11- الخطاب الديني متهم بأنه يؤصل للتقليد، ولتقليد الأموات بالذات، وكلما بعدت الشقة بين الناس وبين مراجع تقليدهم وتقدم الزمن عليهم كلما كانوا أقرب إلى هذا الخطاب.

12- الخطاب الديني متهم بأنه خطاب قبلي جعل التاريخ الإسلامي كله نهبًا بين القبائل، وما تزال أسر معينة تتقاسم الملك والسلطان والسياسة والنفوذ في البلدان التي ينتشر فيها هذا الخطاب.

13- الخطاب الديني يعد خطابًا للأغنياء ولا يخلو من إذلال للفقراء.

14- الخطاب الديني يستلب الإنسان لصالح اللاهوت ويلغي مكوناته الشخصية ويجعله كأنه لا شيء، ويسوي في الكثير الغالب بين عبودية الإنسان لإنسان مثله وعبودية الإنسان لله تعالى.

15- الخطاب الديني متهم بأنه يثير الحروب بين الناس ويجرض بعضهم على بعض ويبيدهم عن حياة السلم.

16- الخطاب الديني متهم بتدمير المعنويات والنفسية بالتخويف الشديد من الله والدار الآخرة وعذاب النار والنفس إذا سحقت هانت وعجزت وصارت أقرب إلى الاحباط.

17- الخطاب الديني متهم بحض الإنسان على مبدأ التعبد اللامعقول وتجاهل حكم التشريع والمقاصد والغايات وصار كل ما تكسبه العامة إذا سألت أصحاب الخطاب أن يقال لها: هذا "تعبد" (ولو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه).

18- الخطاب الديني متهم بتجاهل إعداد الأمة علميًا وتزويدها بجميع القدرات التي تمكن لها في هذه الحياة الدنيا وتهميش مهمة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- 19- الخطاب الديني يميل إلى التأويل وقد يتقبل شيئاً من التحريف أو التغيير لصالح التأويل مما مهد لبروز اتجاهات التشديد والتشوش والخلط بين ما هو غيِّ وما هو رشد.
- 20- الخطاب الديني متهم بتشتيت الجهود في خطاب يقوم على الافتراض وتخيل الخطر من أيّ شيء تحت شعار سد الذرائع.
- 21- الخطاب الديني متهم برغبة جشعة في الاستحواذ على سلطة المعرفة في الدين وحجبها عن الآخرين والاختصاص بها.
- 22- الخطاب الديني متهم بأنّه يطالب الناس أحياناً بالشيء ونقيضه والأمر وضده لكثرة الأقوال وتشعب المذاهب في سائر المسائل.
- 23- الخطاب الدينيّ متهم بإضعاف مبدأ المسؤولية لدى الإنسان؛ لذلك أدى إلى التذبذب الشديد بين التخفيف والتشديد.
- 24- الخطاب الدينيّ متهم بالتشجيع على تبني عقيدة الجبر والتزهيد في العمل والسعي في الحياة.
- 25- الخطاب الدينيّ متهم بإثارة الجدل في الأصول والفروع وتدمير فاعليّة الأمة في ذلك الجدل.
- 26- الخطاب الدينيّ متهم بدفع المتدينين إلى العناية بالمظاهر والرسوم والأشكال والاستهانة بكثير من أمور الدين المهمة أو التهوين من شأنها ويكفي أن يضرب مثلاً لذلك بالجدل الذي يدور حول إعفاء لحي الرجال وخمار النساء.
- 27- الخطاب الدينيّ متهم بالتهوين من شأن العلم بادعاء البعض أنّ هناك علمًا لدينيًا وهبياً لا كسبياً، وقد يجترئ هؤلاء بضرب المثل بكليم الله والعبد الصالح.

- 28- الخطاب الدينيّ متهم بتعويد المسلمين على التقليد والتبعية.
- 29- الخطاب الدينيّ متهم بإدخال الشرك الخفي أو الصريح إلى كثير من عقائد العامة وإضعاف مفهوم التوحيد والوعي به لديهم.
- 30- الخطاب الدينيّ متهم بتفريق الأمة شيعًا وأحزابًا واستمراره بذلك، وتجاهلها للوعيد الإلهي لمن يقع في هذه الجريمة.
- 31- الخطاب الدينيّ متهم بأنه أدى إلى حرمان المتخصصين فيه من الرزق الكريم وحصر مصادر أرزاقهم بالأوقاف والندور وما إليها.
- 32- الخطاب الدينيّ متهم بفساد مضمونه المعرفي في مجال الوعظ والإرشاد والخطابة والدعوة.
- 33- الخطاب الدينيّ متهم بأنه عجز عن تحريك أبناء الأمة باتجاه تدبير أرزاقها ورفض الاستجداء ووسائله.

أصحاب الخطاب الإسلامي:

اكتشاف أصحاب الخطاب الديني أن الأمة المسلمة وصياغة الخطاب الدينيّ فيها يواجهان اليوم تحديًا أكبر بكثير من كل ما واجهوه فيما مضى. فتلاشت مشكلة العدد مثلاً، وكون المقاتل ذكراً، وظهور الإنترنت. فكيف يستوعب هذا الخطاب هذه المستجدات وكيف يُوظفها؟

مراجعة الخطاب الإسلامي حتى يؤدي دوره المناط به: يحتاج لما يلي:

1) إدراك الخصائص الذاتية لأمتنا وبيئتنا ومنطقتنا ومعرفة «المنظور الحضاري» القادر على إعادة الفاعلية الإيجابية لأبناء الأمة وإخراجها بجميع شرائحها من السلبية والتواكل.

2) أن يكون خطابًا قادرًا على تحديد أولويات الأمة بمجموعها، بدقة وانضباط يحولان دون تفشي ظاهرة الافتتات على الأمة، وتجاوزها، وشيوع الفردية والحزبية الضيقة.

3) أن يكون خطابًا قادرًا على التمييز بين الثوابت والمتغيرات في الخطاب الإسلامي وضرورة ملاحظة الفروق بينها، والتخلص من فوضى الخلط والتداخل بينها.

4) أن يكون خطابًا قادرًا على إدراك مدى تكيف المتغيرات في الخطاب الإسلامي مع الوقائع الجديدة في الحياة: وهل استطاع هذا الخطاب التطور في دائرة البعد التاريخي، والامتداد إلى الحاضر، دون السكون في الموقف التاريخي لهذا الخطاب خاصة في مجال المتغيرات؟ وما مدى فاعلية «الاجتهاد المعاصر» بالنظر لاختلاف محتواه ووسائله عبر الزمن الواحد من مكان إلى مكان ولقياس هذه الفاعلية لا بدّ من النظر في آليات الاجتهاد - باعتباره حالة عقلية للأمة - ومدى قدرته على استيعاب البعد الجغرافي واختلافه بتلك الآليات، ومدى استيعابه للبعد الاجتماعي واختلافه، ومدى استيعابه للبعد الثقافي واختلافه.

5) أن يتجاوز الخطاب قضية طرح الإسلاميين بديلاً عن النظم الحاكمة الحالية بهدف "تطبيق الشريعة" وإعادة إنتاج "صيغة المدينة السياسية" فلقد ثبت عجز هذا الخطاب عن إقناع الأمة.

مقتضيات إعادة بناء الخطاب:

يقتضي ما يلي:

1- تشكيل ما يعرف "بهيئة إدارة الأزمة أو الصراع" التي من الواجب ألا يكون فيها إلا أولئك القادرون على "الوعي الاستراتيجي" فكريًا وفلسفة وتخطيطًا، وهم أندر من الندر، خاصة في عالمنا الإسلامي اليوم. ولا بد من وضع مواصفات تفصيلية لهذا النوع من الطاقات. إن القرآن المجيد قد اشتمل على مجموعة كبيرة من الأسس والقواعد والدعائم الاستراتيجية لا يعلمها إلا أولئك الذين يتمتعون بقابليات "الاستنباط": ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣) (والمندبر لآيات "صلاة الخوف" في سور النساء: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: 102-105) يدهش حين يرى القرآن المجيد يأخذ بالأبعاد "الاستراتيجية في الصلاة، ولا يقضى العجب حين يرى تأويل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتفعيله لهذه الآيات في "صفة صلاته لصلاة الخوف" والآيات والتطبيق النبوي كلاهما يقدمان لنا دروسًا في غاية الأهمية في فلسفة الخطاب وفلسفة التلقي؛ وبناء فكر استراتيجي شامل فاعل.

2- إنَّ "هيئة إدارة الأزمة أو الصراع" المقترحة تحتاج إلى أعداد كبيرة من العلماء الباحثين الجادّين القادرين على المتابعة والتحليل وحسن التفسير لمساعدة الهيئة في عملها الخطير. وهؤلاء، أو فريقٌ منهم، مسئولون عن رصد الظواهر المختلفة ومتابعتها، الإيجابية منها والسلبية، في العالم كلّ، وفق جدول أولويات؛ لمعرفة كل ظاهرة من الظواهر، ورسم السبل الكفيلة بتوظيفها أو الاستفادة منها في إدارة الأزمة، كما أنّها في حاجة إلى الباحثين المرسلين من أنحاء العالم كله لمتابعة ما ذكر.

3- لا شك أن ميزاتية هذا النوع من الجهود ستكون مكلفة جدًّا، ولذلك فإنّ الهيئة ولجانها المتخصصة مطالبة بالتخطيط لاستثمار كل ما هو متوافر، أو يمكن توفيره بأموال الآخرين وجهودهم، وإتقان عمليّات الاستفادة والتوظيف لسائر الإمكانيات التي يمكن الوصول إليها.

4- مراجعة تراثنا وتاريخنا ورصد جميع الظواهر فيه، الإيجابية منها والسلبية، بدءًا من "جيل التلقي" وانتهاءً "بجيل التقليد والتبعية" الحالي.

5- إدخال مبادئ التأييد والرفض المدنيّ الحضاريّ (العصيان المدني)، وتوظيف المؤسسات والإمكانيات القائمة والممكنة لإيجاد الوعي به، ونشر ثقافته، ونبد العنف والكفاح المسلّح، خاصّة على مستوى الداخل الإسلامي.

6- رسم الخطط اللازمة لاحتواء الخطاب والاتجاهات التي انبثقت عن حالات الكفاح والمقاومة المسلحة في مراحل العمل على الاستقلال والتحرير، وتحويلها بقدر الإمكان إلى جزء فاعل في الخطاب المقترح وحملته، وعدم إتاحة الفرصة لأحد يجعلها وقودًا في الصراعات الداخليّة.

7- التخلص بشكل مدروس مخطّط له من كثير من الثنائيات التي يتوزع العمل الإسلاميّ عليها وحوّلها، ومن ذلك ثنائيّة "المفكر والفقير"، و"الصوفي والسلفي" و"الشيوعيّ والسنيّ"، وتيارات "الأصالة والمعاصرة"، و"الرجعيّة والحداثة"، وما إلى ذلك من ثنائيات؛ لأنّ "المشروع الحضاريّ المقترح" لا بد أن يصاغ بحيث يقنع جميع الفئات المتصارعة بأنّه ليست هناك فئة واحدة تملك معالجة مشكلات الأمة، وتقديم الحلول المناسبة لها، وأنّ المشروع المقترح لا بد أن يكون قادرًا على تفجير طاقات فئات الأمة كلّها؛ بحيث يؤمن

كل فريق بضرورة قبوله للآخر وتعاونه معه، أمّا نقاط الاختلاف فقد طورت البشريّة وسائلها العديدة في احتوائها، وتحويلها إلى جزء من عناصر القوّة، لا إلى جزء من عناصر الضعف، بدءًا من اكتشاف "القرعة" وانتهاءً "بصناديق الاقتراع" دون مساس أو تجاوز للقرآن المجيد والسنة والسيرة العطرة، ثم التجارب الإسلاميّة في مختلف الفترات التاريخيّة.

8- إنّ هيئة إدارة الأزمة لا بد لها من التوجيه نحو معرفة إسلاميّة حقيقيّة بالغرب تنافس مستوى معرفة إدارة الصراع الغربيّة بالمسلمين والعالم الإسلامي، وتتجاوزها، وهذا وحده يحتاج إلى جهود جبّارة متواصلة، وفترة زمنيّة ليست بالقصيرة، وأموال طائلة.

9- إن سائر من تكون لهم صلة بهذا المشروع مطالبون بأن يكون لديهم وعي برؤية كليّة إسلاميّة مشتركة، ومنظور حضاريّ إسلاميّ قابل للقياس في خطواته كلها، وفي سائر وسائله، ويمكن مراجعته في كل مرحلة، ويكون قابلاً للتعديل في سائر المراحل.

أصول الخطاب الديني

يعد القرآن الكريم المصدر المنشئ والكاشف عن "الخطاب الديني"، وتعد السنة النبويّة المصدر التطبيقيّ المبين لهذا الخطاب، ثم تأتي أصول أخرى قدمها الواقع واستندت إلى الأصلين بشكل أو بآخر، هذه الأصول التي بلغت في يومنا هذا خمسين أصلًا من ناحية أصول الفقه تعد هي الأصول التي أنتجت الخطاب الدينيّ.

فكيف تتم هذه المراجعة؟ ومن أين نبدأ؟.

أولاً: لا بد من إنهاء حالة الهجر بيننا وبين القرآن المجيد، وكسر سائر الحواجز التي حالت أو تحول بيننا وبينه، مما جعل دوره في بناء حياتنا دورًا هامشيًا، قليل الفعاليّة، ضئيل التأثير. فكيف يتم ذلك؟

ابتداءً لا بد: من الكشف عن خصائص القرآن المجيد. سمي القرآن المجيد ووصف بما يزيد عن أربع وخمسين اسمًا ووصفًا، ولكل منها دلالة، فحين يوصف القرآن بأنه "فرقان ونور وبصائر

وهدى وموعظة ورحمة، وتبيان لكل شيء"، وأحسن تفسيراً لكل شيء، فهذه أوصاف وأسماء ينبغي أن تؤخذ بدقة وبقوة وتفهم بشكل دقيق وأمين، فنقف عند كل اسم وعند كل وصف ونتأمل ونتفكر ونتدبر، ونتعقل لم وصف الله (تعالى) كتابه بهذا الوصف، ما دلالتة؟ هل هو مجرد المدح؟ أو له دلالة معرفية؟ إن كانت -وهذا لا شك فيه- فما هي؟ فإذا انتهينا من ذلك كله فسنتكشف أن من أهم الأوصاف التي وصف الله القرآن بها أنه قد اشتمل على شرعة ومنهاج، وإذا كانت الشرعة واضحة ظاهرة فما هو المنهاج؟ وما المراد به؟ وكيف نكتشفه؟ وكيف نوظفه في سائر أمورنا المعرفية والثقافية والتشريعية والحضارية وما إليها؟

ثانياً: وهناك معارف خاطئة أضيفت لما عرف بـ "علوم القرآن" ورددها بعض المفسرين هيئات ومهدت للقول بأن القرآن يمكن أن يكون مصدرًا لهذا، فحين يقال: إِنَّ الْآيَةَ (29) مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: 29)، التي أطلقوا عليها "آية السيف" وزعموا أنها نسخت مائتي آية أخرى من آيات الكتاب الكريم فإنَّ هذا القول يمكن أن يؤدي إلى وصم القرآن من أعدائه بمثل تلك الصفة التي لا تصدق عليه ولا تليق به.

فلا بد من إعادة قراءة هذه المعارف التي أطلق عليها "علوم القرآن" ومراجعتها على كتاب الله (عز وجل)، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لمعرفة ما يصدق الكتاب عليه ويهيمن، أو ما يرفضه الكتاب، وإعادة كتابتها بشكل يسد أبواب الشبهات التي تثار بين الحين والآخر ضد كتاب الله (جل شأنه)، مثل اشتماله على المبهم وغير المفهوم، والمتشابه، ووجود ناسخ فيه ومنسوخ، وما إلى ذلك.